

ليالى ألف ليلة

١



# ليالي ألف ليلة تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للأدب ١٩٨٨

دار الشروق



## شهر يار

عقب صلاة الفجر ، وسحب الظلام صامدة أمام دفقة الضياء المتوثبة ، دعى الوزير دندان إلى مقابلة السلطان شهر يار . . تلاشت رزانة دندان ، خفق قلب الأبوة بين جوانحه ، غمغم وهو يرتدى ملابسه : «الآن تقرر المصير . . مصيرك يا شهر زاد!» . .

مضى فى الطريق الصاعد إلى الجبل على برذون يتبعه نفر من الحرس ويتقدمه حامل مشعل فى جو مشعشع بالندى وبرودة مستأنسة . . ثلاثة أعوام مضت بين الخوف والرجاء ، بين الموت والأمل . . مضت فى رواية الحكايات ، وبفضل الحكايات امتد الأجل بشهر زاد ثلاثة أعوام . . غير أن للحكايات نهاية ككل شىء ، وقد انتهت أمس ، فأى قدر يرصدك يا بنتى الحبيبة؟!!

دخل القصر الرابض فوق الجبل . اقتاده الحاجب إلى شرفة خلفية تطل على الحديقة المترامية . . بدا شهر يار فى مجلسه على ضوء قنديل واحد ، سافر الرأس ، غزير الشعر أسوده ، تلتمع

عيناه فى وجهه الطويل ، وتفترش أعلى صدره لحيه عريضة . .  
قبل دندان الأرض بين يديه . . داخلته رهبة - رغم طول المعاشرة -  
لرجل حفل تاريخه بالصرامة والقسوة ودماء الأبرياء . . وأشار  
السلطان بإطفاء القنديل الوحيد فساد الظلام ، ولاحت بوضوح  
نسبى أشباح الأشجار الفواحة . . تتم شهر يار :

- ليكن الظلام كى أرصد انبثاق الضياء . .

تفعل دندان شيئاً ما وقال :

- متعك الله يا مولاي بأطيب ما فى الليل والنهار . .

صمت . . لم يستطع دندان أن يستشف ما وراء وجهه من رضا  
أو سخط حتى قال بهدوء :

- اقتضت مشيئتنا أن تبقى شهرزاد زوجة لنا . .

وثب دندان واقفا ثم انحنى على يد السلطان فلثمها بامتنان  
ودمع الشكر يتحرك فى أعماقه .

- فليؤيد الله سلطانك إلى أبد الأبدين . .

قال السلطان وكأنا تذكر ضحاياها :

- العدل له وسائل متباينة ، منها السيف ومنها العفو ، ولله  
حكيمته . .

- سدد الله خطاك إلى حكيمته يا مولاي . .

فقال بارتياح :

- حكاياتها السحر الحلال ، تفتحت عن عوالم تدعو للتأمل . .

ثمّل الوزير بفرحته صامتا فقال السلطان :

- وأنجبت لى وليدا فسكنت عواصف النفس الهائجة . .

- لتنهأ يا مولاي بالسعادة فى الدارين . .

تمتم السلطان باقتضاب :

- السعادة!

قلق دندان لسبب غامض . . ارتفع صياح الديكة . . قال  
السلطان وكأنما يخاطب نفسه :

- الوجود أغمض ما فى الوجود!

غير أن نبرته تخففت من الحيرة وهو يقول :

- انظر!

نظر دندان نحو الأفق فرآه يتورد بالسرور المقدس . .

\* \* \*

## شهرزاد

استأذن دندان فى مقابلة ابنته شهرزاد . . قادته قهرمانة إلى  
حجرة الورد ذات السجادة والستائر الموردة . . ذات الدواوين  
والوسائد المشربة بالحمرة . . هناك استقبلته شهرزاد وأختها  
دنيازاد . . قال الرجل :

- ينوء ظهري بالسعادة فالحمد لله رب العالمين . .

أجلسته شهرزاد إلى جانبها على حين انسحبت دنيازاد إلى  
مقصورتها . . قالت شهرزاد :

- نجوت من المصير الدامى برحمة من ربنا . .

فغمغم الرجل شاكرا فقالت بمرارة :

- ليرحم الله العذارى البريئات . .

- ما أحكمك وما أشجعك !

فقالت هامسة :

- ولكنك تعلم يا أبى أنى تعيسة !

- حذار يا بنتى فإن الخواطر تتجسد فى القصور وتنطق!  
فقلت بأسى:  
- ضحيت بنفسى لأوقف شلال الدم . .  
فتمتم:  
- لله حكمته . .  
فقلت بحنق:  
- وللشيطان أولياؤه . .  
قال بتوسل:  
- إنه يحبك يا شهرزاد . .  
- الكبر والحب لا يجتمعان فى قلب، إنه يحب ذاته أولا  
وأخيرا . .  
- للحب معجزاته أيضا . .  
- كلما اقترب منى تنشقت رائحة الدم . .  
- السلطان ليس كبقية البشر . .  
- لكن الجريمة هى الجريمة . . كم من عذراء قتل، كم من تقى  
ورع أهلك، لم يبق فى المملكة إلا المنافقون . .  
فقال بحزن:  
- ثقتى بالله لم تنزعز قط . .  
- أما أنا فأعرف أن مقامى فى الصبر كما علمنى الشيخ الأكبر .  
فقال دندان باسم:  
- نعم الأستاذ ونعم التلميذة . .

## الشيخ

يقيم الشيخ عبد الله البلخي في دار بسيطة بالحي القديم . .  
تنطبع نظرتة الحاملة في قلوب الكثيرين من تلاميذه القدامى  
والمحدثين وتنطبع بعمق أبدى في قلوب المريدين . . العبادة  
الكاملة عنده مقدمة ليس إلا ، فهو شيخ الطريق ، وقد بلغ منه مقام  
الحب والرضا . . عندما غادر خلوته إلى حجرة الاستقبال أقبلت  
عليه زبيدة ابنته المراهقة والوحيدة وقالت بسرور :

- المدينة فرحانة يا أبى . .

فتساءل دون مبالاة :

- ألم يصل بعد الطبيب عبد القادر المهينى؟

- لعله فى الطريق يا أبى ، لكن المدينة فرحانة لأن السلطان  
رضى بشهرزاد زوجة له وعدل عن سفك الدماء . .

لا شىء يخرج من هدوئه . . الرضا فى قلبه لا ينقص ولا  
يزيد . . وزبيدة ابنة وتلميذة ولكنها ما زالت فى أول الطريق . .  
وسمعت على الباب طرقا فمضت قائلة :

- جاء صديقك لزيارته المعتادة . .

دخل الطبيب عبد القادر المهيني فتعانقا ثم اقتعد شلثة إلى جانب صديقه . . ودارت المناجاة كالمعتاد على ضوء مصباح فى كوة . . قال عبد القادر :

- عرفت لا شك الخبر السعيد . .

فقال باسم :

- عرفت ما يهمنى معرفته . .

فقال الطبيب :

- الحناجر تدعو لشهرزاد بينا أنك أنت صاحب الفضل الأول . .

فقال بعتاب :

- الفضل للمحجوب وحده . .

- إنى مؤمن أيضا ولكنى أتابع المقدمات والنتائج ، لولا أنها تتلمذ على يدك صببية ما كانت شهرزاد . . لولا كلماتك ما وجدت من الحكايات ما تصرف به السلطان عن سفك الدماء . .

قال الشيخ :

- يا صديقى لا عيب فىك إلا أنك تغالى فى تسليمك للعقل . .

- إنه زينة الإنسان . .

- من العقل أن نعرف حدود العقل . .

فقال عبد القادر :

- من المؤمنين من يرون أنه بلا حدود . .

- لقد فشلت في جذب كثيرين إلى الطريق ، أنت على رأسهم . .

- الناس مساكين يا مولاي ، في حاجة إلى من يتعامل معهم ويبصرهم بحياتهم . .

فقال الشيخ بثقة :

- رب روح طاهرة تنقذ أمة كاملة . .

فتساءل الطبيب بامتعاض :

- على السلولى حاكم حيناً ، كيف تنقذ الحى من فساده؟! فقال بأسى :

- لكن المجتهدين مراتب . .

فقال بإصرار :

- إنى طبيب ، وما يصلح الدنيا هو ما يهمنى . .

فربت يده برقة فابتسم الطبيب وقال :

- ولكنك الخير والبركة . .

فقال الشيخ :

- أحمد الله فلا السرور يستخفى ، ولا الحزن يلمسنى . .

- أما أنا فحزين يا صديقى العزيز . . كلما تذكرت الأتقياء  
الذين استشهدوا لقول الحق ، واحتجاجا على سفك الدماء ونهب  
الأموال ازددت حزنا!

قال الشيخ :

- شد ما تأسرنا الأشياء!

فقال عبد القادر فى رثاء :

- استشهد الشرفاء الأتقياء ، أسفى عليك يا مدينتى التى لا  
يتسلط عليك اليوم إلا المنافقون ، لم يا مولاي لا يبقى فى المزود  
إلا شر البقر؟!!

- ما أكثر عشاق الأشياء الخسيسة!

وترامت إليهما من أطراف الحى أصوات زمر وطبل فأدركا أن  
الأهالى يحتفلون بالخبر السعيد . . عند ذاك قرر الطبيب أن يذهب  
إلى مقهى الأمراء .

## مقهى الأمراء

يتوسط المقهى الجانب الأيمن من الشارع التجارى الكبير . . وهو مربع الأركان، واسع الساحة، يفتح مدخله على الطريق العام، وتطل نوافذه على حوارى جانبية . . تقوم فى جوانبه الأرائك للسادة، وتستقر فى دائرة من وسطه الشلت للعامه . . يقدم مشروبات شتى ساخنة وباردة تبعا للفصول، وبه أيضا أجود صنوف المنزول والحشيش . . تشهد ليليه كثيرين من السادة أمثال: صنعان الجمالى وابنه فاضل، وحمدان طنيشة وكرم الأصيل وسحلول وإبراهيم العطار وابنه حسن، وجيليل البزاز ونور الدين وشملول الأحذب . . كما تشهد كثيرين من العامه أمثال: رجب الحمال وزميله السندباد وعجر الحلاق وابنه علاء الدين وإبراهيم السقاء ومعروف الإسكافى . . غلب المرح على الجميع فى تلك الليلة السعيدة، وسرعان ما انضم الطبيب عبد القادر المهينى إلى مجلس يضم إبراهيم العطار وكرم الأصيل صاحب الملايين وسحلول تاجر المزايدات والتحف . . أفاقوا ليلتهم من خوف متسلط واطمأن كل أب لعذراء جميلة فوعده النوم بأحلام تخلو من الأشباح المخيفة . . وترددت أصوات:

- الفاتحة على أرواح الضحايا . .  
- من العذارى والرجال الأتقياء . .  
- وداعاً للدموع . .  
- الحمد والشكر لله رب العالمين . .  
- وطول العمر لدرة النساء شهرزاد . .  
- شكراً للحكايات الجميلة . .  
- ما هي إلا رحمة الله حلت . .  
تواصل المرح والحديث حتى علا صوت رجب الحمال  
متسائلاً:

- أمجنون أنت يا سندباد؟  
فسأل عجر الشغوف بدس أنفه في كل شيء :  
- ماذا جننه في هذه الليلة السعيدة؟  
- يبدو أنه كره عمله وضاق بالمدينة ، لا يريد أن يكون حمالاً  
بعد اليوم . .  
- أيطمع في أن يتولى إمارة الحى؟  
- ذهب إلى ربان سفينة وما زال به حتى قبله خادماً بها؟  
فقال إبراهيم السقاء :  
- مجنون حقاً من يعرض عن رزق مضمون على البر ليجرى  
وراء رزق مجهول فوق الماء . .

فقال معروف الإسكافى :

- الماء الذى يستمد غذاءه من الجثث منذ قديم الزمان . .

فقال السندباد بتحد :

- ضجرت من الأزقة والحوارى ، ضجرت من حمل الأثاث والنقل ، لا أمل فى مشهد جديد ، هناك حياة أخرى ، يتصل النهر بالبحر ، يتوغل البحر فى المجهول ، يتمخض المجهول عن جزر وجبال وأحياء وملائكة وشياطين ، ثمة نداء عجيب لا يقاوم ، قلت لى نفسى «جرب حظك يا سندباد وألق بذاتك فى أحضان الغيب» .

فقال نور الدين بىاع العطور :

- الحركة بركة . .

فقال السندباد :

- تحية جميلة من زميل الصبا . .

فسأل عجر الحلاق ساخرا :

- هل تتمسح فى السادة يا حمال؟

فقال نور الدين :

- جلسنا جنباً لجنب فى الزاوية نتلقى الدرس على يد مولانا

عبد الله البلخى . .

فقال السندباد :

- وقنعت بمبادئ القراءة والدين شأن الكثيرين . .

فقال عجر مواصلا سخريته :

- لن ينقص بذهابك البر ولن يزيد البحر . .

عند ذلك قال له الطبيب عبد القادر المهيني :

- اذهب مصحوبا برعاية الله ولكن اشحذ حواسك ، ليتك  
تسجل ما يصادفك من بديع المشاهدات فقد أمرنا الله بذلك . متى  
تسافر؟

فقال متمتما :

- صباح الغد ، أستودعكم الله الحى الباقي . .

فقال رجب الحمال زميله :

- ما أحزننى لفراقك يا سندباد!

## صنعان الجمالى

- ١ -

الزمن يدق دقة خاصة فى باطنه فيوقظه . . مد بصره نحو نافذة  
قريبة من الفراش فرأى من خلال خصاصها المدينة مسربلة فى  
الظلام . . النوم سلبها الحركة والصوت فاستكنت فى صمت  
مفعم بهدوء كونى . . انفصل من جسد أم السعد الدفئ هابطا إلى  
الأرض . . انغرزت قدماه فى زغب سجادة فارسية . . مد ذراعه  
ملتصبا موقع الشمعدان فارتطمت بكثافة صلبة فجفل متسائلا :

- ما هذا؟

جاء صوت غريب ، لم يطرق أذنيه مثله من قبل . . لا صوت  
إنسان هو ولا صوت حيوان . . اجتاح حواسه وكأما انتشر فى  
المدينة كلها . . ونطق الصوت فى غضب :

- دست رأسى يا أعمى !

صرعه الخوف . . ما به من الفروسية ذرة . . ما يجيد إلا البيع  
والشراء والمساومة . . أكد الصوت قاتلا :

- دست رأسى يا جاهل . .
- قال بنبرات مرتجفة :
- من أنت؟
- أنا قمقام . .
- قمقام؟!!
- عفريت من أهل المدينة . .
- أوشك أن يتلاشى من الرعب فانعقد لسانه . .
- ألمتنى فحقّ عليك العقاب . .
- عجز لسانه عن أى دفاع فواصل قمقام حديثه :
- سمعتك أمس يا منافق وأنت تقول إن الموت علينا حق فما  
بالك تبول من الخوف؟!!
- نطق أخيراً بضراعة :
- ارحمنى ، أنا رب عائلة . .
- لن يحيق عقابى إلا بك أنت . . .
- ما فكرت لحظة واحدة فى التعرض لك . .
- يا لكم من مخلوقات مزعجة ، لا تكفون عن الطمع فى  
استعبادنا لتحقيق أغراضكم الدنيئة . . ألم يشبع نهمكم باستعباد  
الضعفاء منكم؟

- أقسم لك . .

فقاطعه :

- لا ثقة لى بقسم تاجر . .

فقال :

- أسألك الرحمة والعفو . .

- أى سبب يدعونى لذلك؟

فقال بلهفة :

- قلبك الكبير . .

- لا تحاول خداعى كما تخدع زبائنك . .

- افعلها لوجه الله . .

- لا رحمة بلا ثمن ، ولا عفو بلا ثمن . .

فشرق بالأمل المباغت فقال بحرارة :

- إنى أفعل ما تشاء . .

- حقاً؟

فقال بلهفة :

- بكل ما أملك من قوة . .

فقال بهدوء مخيف :

- اقتل على السلولى . .

غرقت الفرحة فى خيبة غير متوقعة كسلعة وردت بعد أهوال  
من وراء البحار ثم تبين عند الفحص فسادها . . تساءل بذهول :

- على السلولى حاكم حينا؟

- دون غيره . .

- لكنه حاكم ويقيم فى دار السعادة المحروسة وما أنا إلا تاجر .  
فهتف .

- إذن فلا رحمة ولا عفو . .

- سيدى . . لم لا تقتله بنفسك؟

قال بحنق :

- استأنسنى بسحر أسود، وهو يستعين بى فى قضاء مآرب لا  
يرضى عنها ضميرى . .

- نحن بعد نخضع لقوانين معينة، دع المناقشة، لك أن تقبل أو  
أن ترفض . .

قال صنعان بحرارة :

- أليس لك رغبات أخرى؟ لدى مال موفور وسلع من الهند  
والصين . .

- لا تبدد الوقت سدى أيها الأحمق . .

اشتد به الإغراء من جديد فنطق به اليأس قائلاً :  
-إنى طوع أمرك . .  
- حذار أن تحاول خداعى . .  
- سلمت الأمر لقدرى . .  
ستكون فى قبضتى ولو أويت إلى جبال قاف . .  
عند ذاك شعر صنعان بألم حاد فى ساعده فصرخ صرخة  
جرفت أعماقه . .

- ٢ -

فتح صنعان عينيه على صوت أم السعد وهى تقول : «ماذا  
أخرك فى النوم؟» . . أشعلت الشمعدان فجعل ينظر فيما حوله  
بذهول . . إن يكن حلما فماله يمتلىء به أكثر من اليقظة نفسها ! . إنه  
حتى لدرجة تجلب الذعر . . رغم ذلك ابتل ريقه برحيق النجاة  
فهيمن عليه هدوء وامتنان . . رد العالم إلى نظامه بعد خراب  
شامل ونعم بعدوبة الحياة بعد عذاب الجحيم . . تنهد قائلاً :  
- أعود بالله من الشيطان الرجيم . .

نظرت أم السعد نحوه وهى تدس خصلات مبعثرة من شعرها  
داخل منديل رأسها وقد طمس النوم على رونق وجهها بطبقة زيتية  
فقال ثملاً بالنجاة :

- الحمد لله الذى أنقذنى من كرب عظيم . .
- الله يحفظنا يا أبا فاضل . .
- حلم فطيع يا أم السعد . .
- خير إن شاء الله . .
- وقادته إلى الحمام فأشعلت مصباحا فى كوة وتبعها وهو يقول :
- قضيت شطرا من الليل مع عفريت .
- كيف وأنت الرجل التقى؟
- سأقصه على الشيخ عبد الله البلخى ، اذهبى الآن بسلام  
لأتوضأ . . راح يتوضأ . . عندما همّ بغسل ساعده اليسرى توقف  
مرتعدا :
- رباه!
- جعل ينظر بذهول إلى جرح كالعضة . . ليس وهما ما يرى  
فمن مغارز الأنياب بضّ الدم . .
- دار رأسه وغمغم :
- هذا هو المستحيل .
- فزع قائما وهرول نحو المطبخ ، تساءلت أم السعد وهى توقد  
الكانون :
- توضأت؟
- مد إليها ساعده قائلا :

- انظري!  
شهقت المرأة متسائلة:  
- ماذا عضك؟  
- لا أدري..  
فاستحوذ عليها القلق وقالت:  
- نمت على خير حال!  
- لا أدري ماذا حصل..  
- لو حدثت فى النهار..  
قاطعها:  
- لم تحدث فى النهار..  
تبادلا نظرة قلقة مضطربة بالخواطر المكتومة.. قالت بغزع:  
- حدثنى عن الحلم..  
فقال بضيق:  
- قلت إنه عفریت.. ولكنه حلم..  
تبادلا النظرة مرة أخرى.. وتبادلا معاناة القلق.. قالت أم  
لسعد بحذر:  
- ليكن الأمر سرا..  
أدرك سر مخاوفها المتجاومة مع مخاوفه.. إذا جرى ذكر

العفريت فلا يدري ماذا يحيق بسمعته كتاجر غدا، ولا ماذا  
تعرض له سمعة كريمته حسنية وابنه فاضل قد يلد الحلم خرابا  
شاملا . . ثم إنه ليس على يقين من شىء . . قالت أم السعد:

- الحلم حلم . . وسر الجرح يعلمه الله وحده . .

فقال بيأس:

- هذا ما يجب التسليم به . .

- المهم الآن أن تبادر إلى العلاج فاذهب إلى صديقك إبراهيم  
العطار . .

كيف يهتدى إلى الحقيقة؟ أرهقه القلق حتى أحنقه فجاش  
بالغضب . . شعر بأنه يمضى من سيئ إلى أسوأ . . وجدانه جميعه  
يشحن بالغضب والحنق وطبعه يسوء فكأنه يخلق من جديد على  
حال تناقض دماثته القديمة الراسخة، ولم يعد يطبق نظرات المرأة،  
فكره نظراتها ومقت خواطرها ووجد رغبة فى تحطيم كل قائم . .  
وفى غفلة من ذاته الضائعة طعنها بنظرة غاضبة حانقة مستفزة كأما  
هى المسئولة عن محتته ثم تحول عنها ذاهبا وهى تغمغم:

- ليس هذا بصنعان الذى كان!

وجد فى الصالة فاضل وحسنية على ضوء كاب نضحت به  
ثقوب المشربية . . ارتسم فى وجهيهما انزعاج دل على ارتفاع  
صوته الهائج فازداد غضبا وصاح بهما بلا سبب وعلى غير عادة:

- اغربا عن وجهى . .

رد باب حجرته وراءه وراح يتفحص ساعده . . لحق به فاضل  
بشجاعة . . قال بقلق :

- لعلك بخير يا أبى . .

فقال له بفضاظة :

- دعنى وحدى . .

- كلب عضك؟

- من قال ذلك؟

- أمى . .

أدرك حكمتها فى إعلان ذلك فرضى ولكن حاله لم  
تتحسن . . قال :

- أمر تافه، إنى بخير، ولكن دعنى وحدى . .

- لا بد من الذهاب إلى العطار . .

فقال بضيق :

- لا حاجة بى إلى من يذكرنى بذلك . .

فى الخارج قال فاضل لحسنية :

- شد ما تغير أبى!

غادر صنعان الجمالى داره دون صلاة لأول مرة فى حياته منذ  
صار صببيا . . ذهب من توه إلى دكان إبراهيم العطار . . صديق  
قديم وجار فى الشارع التجارى . . ولما رأى العطار ساعده قال  
متعجبا :

- أى كلب هذا! ولكن ما أكثر الكلاب الضالة!

وعكف على انتخاب جملة من الأعشاب وهو يقول :

- عندى وصفة لا تخيب . .

غلى الأعشاب حتى ترسبت مادة لزجة . . غسل الجرح بماء  
الورد . . غطاه بالمادة وبسطها عليه بمعلقة خشبية ثم عصب  
الساعد بشاش دمشقى وهو يتمتم :

- بالشفاء إن شاء الله . .

وإذا بصنعان يقول رغما عنه :

- أو فليفعل الشيطان ما يريد . .

تفرس إبراهيم العطار فى وجه صاحبه المحتقن فعجب من  
تغيره وقال :

- لا تدع جرحا تافها ينال من طبعك الحلو . .

فمضى مكفهر الوجه وهو يقول :

- لا تأمن لهذه الدنيا يا إبراهيم . .

ما أشد جزعه! كأنما اغتسل بماء شطة حامية . . الشمس حارة

غليظة . . وجوه العباد كئيبة . . وكان فاضل قد سبقه إلى الدكان  
فاستقبله بابتسامة مشرقة ضاعفت من غيظه . . لعن الجور غم  
ارتياحه المعروف لجميع الأجواء . . لا يكاد يرد تحية . . ولا يرحب  
بأحد . . لا يستبشر بكلمة أو وجه . . لا يضحك لدعابة . .  
لا يتعظ بعبور جنازة . . لا يسره وجه مليح . . ماذا جرى؟ ضاعف  
فاضل من نشاطه ليحول ما أمكن بين أبيه والزبائن . . وأكثر من  
زبون سأل فاضل هامسا :

- ما بال أبيك اليوم؟

فيقول الفتى بامتعاض :

- به وعكة، لا أراك الله من سوء . .

\* \* \*

- ٤ -

وسرعان ما تكشف حاله لرواد مقهى الأمراء . . يقصدهم  
متجهما، يجلس صامتا، أو يحاور محاوره الشارد . . كف عن  
تعليقاته الضاحكة . . يضجر سريعا فيغادر المقهى . . يقول إبراهيم  
العطار :

- عضه كلب متوحش . .

فيقول جليل البزاز :

- لقد فقدناه تماما . .

ويقول كرم الأصيل صاحب الملايين وذو وجه القرد :

- حاله التجارية مزدهرة جداً . .

فيقول الطبيب عبد القادر المهيني :

- قيمة المال تتبخر عند المرض . .

فيقول عجر الحلاق ، الوحيد بين الجالسين على الأرض الذى

يدس نفسه أحيانا فى أحاديث السادة ، يقول متفلسفا :

- ما الإنسان؟ . . عضة كلب أو قرصة ذبابة . .

ولكن فاضل صنعان صاح به :

- أبى بخير ، ما هى إلا وعكة تزول قبل شروق الصبح !

\* \* \*

لكنه توغل فى حال يتعذر الهيمنة عليها . . وفى ليلة التهم من المنزول قدرا مجنوننا وغادر المقهى متوثبا لاقتحام المجهول . . كره الذهاب إلى داره فراح يتخبط فى الظلام مشعث العقل والإرادة تسوقه أخيلة معرودة . . تمنى فعلا يمتص توتره الشائر ويريحه من العذاب . . وتذكر نساء من أهله شبعن موتا فتمثلن له عاريات فى أوضاع جنسية تطفح بالإغراء فأسف على أنه لم ينل من إحداهن وطرا . . ومر بعطفة الشيخ عبد الله البلخى ففكر لحظة فى زيارته والاعتراف بين يديه بما وقع له ولكنه أسرع مبتعدا . . وعلى ضوء مصباح مدلى من هامة أحد أبواب الدور رأى بنتا فى العاشرة ماضية فى طريقها تحمل بين يديها سلطانية . . اندفع نحوها معترضا سييلها متسائلا :

- أين تذهبين يا عروس؟

فقال ببراءة:

- راجعة لأمي . .

فغاص في الظلام حتى فقد البصر وقال:

- تعالى أريك شيئاً طريفاً . .

حملها بين ذراعيه حتى اندلق ماء المخلل على جبته الحريرية  
ومضى بها إلى ما تحت سلم الكتاب . . حارت البنت في أمر حنانه  
الغامض ، لم ترشح إليه ، وقالت متشكية :

- أمي تنتظر . .

لكنه أثار حب استطلاعها بقدر ما أثار مخاوفها . . أغراها  
عمره - الذي ذكرها بأبيها - بنوع من الاطمئنان . . خالط ذلك قلق  
مجهول وتوقع لحلم عجيب . . وندت عنها صرخة باكية تمزق لها  
وجدانه وبعثت في مخيلته المظلمة أطيافاً مرعبة فسرعان ما كتم  
فاها براحتة المرتعشة . . لطمته إفاقة مباغته فعاد إلى سطح الأرض  
وهمس متوسلاً :

- لا تبكى . . لا تخافى . .

وزحف اليأس حتى قوض أركان العالم . . ومن الخراب  
الشامل تناهى إليه وقع أقدام تقترب . . وبسرعة قبض على عنقها  
الرقيق بيدين غريبتين عنه وتردى في الهاوية كوحش كاسر زلت  
قدمه . . أدرك أنه انتهى . . انتبه إلى صوت ينادى :

- بسيمة . . بنت يا بسيمة . .

قال لنفسه فى يأس كامل :

- لا مفر . .

وضح الآن أن الأقدام تقترب من مكمته . . وضوء فانوس  
يتخايل . . دفعته رغبة للخروج حاملا الجثة . . وإذا بوجود ثقيل  
يقتحم وجوده المتهافت فاقتحمته ذكرى الحلم . . وسمع الصوت  
الذى سمعه منذ يومين يتساءل :

- أهذا ما تعاهدنا عليه؟

قال مستسلما :

- أنت حقيقة إذن ولست حلما!

- أنت مجنون ولا ريب . .

- أوافق على ذلك ولكنك أنت السبب!

فقال الصوت بغیظ :

- ما طالتك بشر قط . .

فقال بحرارة :

- لا وقت للمناقشة، أنقذنى لأفى لك بما تعاهدنا عليه . .

- هذا ما جئت من أجله ولكنك لا تفهم . .

شعر بأنه يتحرك فى فراغ فى عالم شديد الصمت حتى سمع  
الصوت مرة أخرى :

- لن يعثر لك أحد على أثر ، افتح عينيك تر أنك واقف أمام  
باب دارك . . ادخل آمنًا ، إنى منتظر . .

\* \* \*

- ٥ -

سيطر صنعان على ذاته بقوة خارقة ، لم تشعر أم السعد بأن  
حاله قد ساءت أكثر . . اختفى وراء جفنيه فى الظلام وراح يتذكر  
ما فعل . . إنه شخص آخر . . القاتل المغتصب شخص آخر . .  
نفسه تتمخض عن كائنات وحشية لا عهد له بها . . الآن يتجرد  
من ماضيه ويطوى أماله ويقدم نفسه للمجهول . . لم ينم ولم تند  
عنه حركة تنم عن أرقه . . فى الصباح الباكر ترمى إليه صوت  
نعى . . غابت أم السعد ساعة ثم رجعت وهى تقول :

- لك الله يا أم بسيمة . .

غض بصره متسائلا :

- ماذا جرى؟

- ماذا حدث للناس يا أبا فاضل؟ البنت اغتصبت وقتلت تحت  
سلم الكتاب ، طفلة يا ربى ولكن تحت جلد بعض الأدميين  
وحوشا مفترسة . .

حنى رأسه حتى تشعثت لحيته فوق صدره وتمتم :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . .

- هؤلاء الوحوش لا يعرفون ربا ولا رسولا . .  
وأجهشت المرأة بالبكاء . .  
جعل يسائل نفسه أهو العفريت؟ أهو المنزول؟ أهو صنعان  
الجمالى؟! . .

\* \* \*

- ٦ -

خواطر الحى كله هائجة . . الجريمة حديث الحى التجارى  
كله . . قال له إبراهيم العطار وهو يجدد له الدواء :  
- الجرح لم يندمل ولكن زال خطره . .  
ثم وهو يلف ساعده بالشاش :  
- سمعت بالجريمة؟  
فقال بامتعاض :  
- أعود بالله . .  
- المجرم ليس آدميا، أبناؤنا يتزوجون فى حال بلوغهم!  
- إنه مجنون ولا شك . .  
- أو أنه أحد الصعاليك العاجزين عن الزواج، إنهم يزحمون  
الطرق كالكلاب الضالة . .

فتساءل العطار متهكما :

- كثيرون يرددون ذلك . .

- ماذا يفعل على السلولى فى دار الإمارة؟

ارتجف لدى ذكرى الاسم وتذكر العهد المعلق كالسيف فوق رأسه ولكنه جراه قائلا :

- مشغول بمصالحة الخاصة وإحصاء الهدايا والرشاوى . .

فقال العطار :

- فضله علينا نحن التجار غير منكور ولكن عليه أن يتذكر واجبه الأصلى لبقى لنا . .

فذهب وهو يقول :

- لا تأمن لهذه الدنيا يا إبراهيم . .

- ٧ -

علم حاكم الحى على السلولى بما يقال عن الأمن من كاتم سره بطيشة مرجان . . خشى أن تترامى الأقوال إلى الوزير دندان فيرفعها إلى السلطان فاستدعى كبير الشرطة جمصة البلطى وقال له :

- هل أتاك ما يقال على الأمن فى عهدى؟

لم يتغير هدوء كبير الشرطة الباطنى لاطلاعه على أسرار رئيسه وانحرافاتة وقال :

- عفوا يا سيدى الحاكم، ما أهملت ولا قصرت فى بث العيون  
ولكن الجانى لم يترك أثرا، لم نعثر على شاهد واحد، وقد حققت  
بنفسى مع عشرات وعشرات من الصعاليك والمتسولين، ولكنها  
جريمة غامضة لم أعرف لها مثيلا من قبل . .  
فصاح به:

- يا لك من جاهل! اقبض على جميع الصعاليك والمتسولين،  
وإنك خير بوسائل التحقيق الفعالة . .  
فقال جمعة بحذر:

- ليس لدينا من السجون ما يتسع لهم . .  
فقال الحاكم محنقا:

- أى سجون يا هذا؟! أتريد أن تلزم بيت المال بإطعامهم؟  
سقمهم إلى الخلاء، استعن بالجند، وائتنى بالمجرم قبل جثوم  
الليل . .

\* \* \*

- ٨ -

انقض رجال الشرطة على الخرابات يقبضون على المتسولين  
والصعاليك ثم يسوقونهم جماعات إلى الخلاء . . لم تجد شكوى  
ولا قسم ولم يستثن الشيوخ . . واستعمل معهم العنف حتى  
جأروا بالاستغاثة بالله ورسوله وآل البيت . . وراح صنعان  
الجمالى يتابع الأنباء بذهول وقلق . . إنه الجانى ما فى ذلك من  
٣٥

شك ولكنه يمضى مطلق السراح مجللا بالوقار . . مئآت من الأبرياء يتعذبون بفعلته النكراء فكيف صار محور هذا الشقاء كله؟! وثمة مجهول يتربص به يهون بالقياس إليه جميع ما سلف . . وهو ضائع تماما ومستسلم بلا شروط . . أما صنعان القديم فقد مات واندرثر . . لم يبق منه إلا ذاكرة حائرة تجتر ذكريات كالأوهام . . وانتبه على ضجة تحتاح الشارع التجارى . . ها هوذا على السلولى حاكم الحى يخترق الطريق على رأس كوكبة من الفرسان . . إنه يذكر الناس بقوة الحاكم ويقظته ويتحدى البلبله . . مضى يرد تحيات التجار عن يمين وشمال . . هذا هو الرجل الذى تعهد بقتله . . فاض قلبه بالخوف والمقت . . إنه سر عذابه . . ووقع الاختيار عليه هو ليحرر العفريت من سحره الأسود! . . هو العفريت دون سواه . . نجاته رهن بالقضاء عليه . . تسمرت عيناه فى وجهه الغامق الريان ولحيته المدببة وجسمه المائل إلى القصر . . وعندما مر أمام دكان إبراهيم العطار هرع إليه المعلم إبراهيم فتصافحا بحرارة . . وعندما مر أمام دكانه حانت منه التفاتة نحوه فابتسم فلم يجد صنعان بدا من العبور إليه والمصافحة! . . وإذا بالسلولى يقول له:

- سنراك قريبا بمشيئة الله .

رجع صنعان الجمالى إلى دكانه وهو يتساءل عما يعنيه . . هل يدعوه إلى مقابلة؟ . . لماذا؟ . . هل يجد السبيل ميسرا من حيث لم ينتظر؟ . . ربطت قشعريرة بين أعلاه وأسفله . . ردد قوله بذهول:

- سنراك قريبا بمشيئة الله؟

- ٩ -

ولما أخلد إلى النوم ليلا هيمن عليه الوجود الآخر وسمع  
الصوت يقول متهكما :

- تأكل وتشرب وتنام وعلى أنا الصبر!

فقال بتعاسة :

- إنها مهمة شاقة لا يدرك مشقتها من له مثل قوتك . .

- ولكنها أسهل من قتل البنت الصغيرة!

فتأوه قائلاً :

- يا للخسارة! طالما عددت من الصفوة الطيبة . .

- لا تخدعنى المظاهر . .

- لم يكن مجرد مظاهر . .

- نسيت أشياء يندى لها الجبين . .

فقال بارتباك :

- الكمال لله وحده!

- لا أنكر أيضا مزاياك ولذلك رشحتك للخلاص!

فقال بجزع :

- لولا اقتحامك حياتي ما تورطت في الجريمة . .

فقال بوضوح :

- لا تكذب ، أنت وحدك مسئول عن جريمتك !

- الحق أنى لا أفهمك . .

- الحق أنى أحسنت بك الظن أكثر مما ينبغى . .

- ليتك تركتني وشأنى !

- إنى عفريت مؤمن ، قلت هذا الرجل خيره أكثر من شره ،  
أجل له علاقات مريبة مع كبير الشرطة ولم يتورع عن الاستغلال  
أيام الغلاء ، ولكنه أشرف التجار ، وذو صدقات وعبادة وذو  
رحمة بالفقراء ، لذلك أثرتك بالخلاص ، خلاص الحى من رأس  
الفساد وخالص نفسك الأثمة ، وبدلا من أن تدرك الهدف  
الواضح انهار بنيانك وارتكبت جريمتك البشعة . .

تأوه صنعان واقعا فى الصمت فواصل الصوت :

- الفرصة متاحة ما زالت . .

فتساءل فى حيرة :

- والجريمة؟

- الحياة تتسع للتكفير والتوبة . .

فتساءل بنبرة فيها ماء الأمل :

- ولكن الرجل فى حصن منيع .

- سوف يستدعيك إلى مقابلته . .

- إنى أعجب لذلك!  
- سوف يستدعيك ، اطمئن واستعد . .  
فتفكر صنعان مليا ثم تساءل :  
- هل تعدنى بالنجاة؟  
- ما اخترتك إلا من أجل النجاة . .  
ومن شدة الإرهاق استغرق صنعان فى نوم عميق . .

- ١٠ -

كان يتأهب للذهاب إلى المقهى عندما قالت أم السعد :  
- رسول من قبل الحاكم ينتظرك فى المنظرة . .  
وجد كاتم السر بطيشة مرجان فى الانتظار بعينيه البراقبتين  
ولحيته القصيرة . . قال له :  
- الحاكم يرغب فى لقاءك . .  
خفق قلبه . . أدرك أنه ذاهب لارتكاب أخطر جريمة فى تاريخ  
الحى . . لعله ضايقه أن يكون بطيشة مرجان مطلعاً على ملابس  
الزيارة ولكنه اطمأن إلى وعد قمام . . قال للرجل :  
- انتظرنى حتى أرتدى ملابسى . .  
فقام الرجل قائلاً :

- بل أسبقك تلافيا من لفت الأنظار . .

إذن فالرجل يحرص على سرية المقابلة ميسرا بذلك مهمته . .  
وراح يتدهن بالمسك وأم السعد تراقبه، منطوية على قلق لم  
يفارقها منذ ليلة الحلم . . هيمن عليها شعور بأنها تعاشر رجلا آخر  
وأن صنعان القديم تلاشى فى الظلام . . وفى غفلة منها دس فى  
جيبه خنجرا ذا مقبض من الفضة الخالصة تلقاه هدية من الهند . .

\* \* \*

- ١١ -

استقبله على السلولى فى جوسقه الصيفى بحديقة الإمارة . .  
طالعه فى جلباب فضفاض أبيض ورأس عار فخفف عنه رهبة  
السلطة . . وقامت بين يديه مائدة حفلت بالقوارير والكئوس  
والنقل فبسط له المؤانسة والقرب . . أجلسه على وسادة إلى جانبه  
مستبقيا مرجان بطيشة ، وقال :

- أهلا بك يا معلم صنعان ، تاجر أصيل وإنسان كريم . .

فتمتم صنعان مداريا ارتبأكه بابتسامه :

- الشكر لك يا نائب السلطان . .

ملاً مرجان ثلاث كئوس ، ساءل صنعان نفسه هل يبقى مرجان  
إلى آخر الجلسة؟ . . لعلها فرصة لا تتكرر فما العمل؟ وقال  
السلولى :

- ليلة صيف لطيفة ، أتحب الصيف؟  
- أحب الفصول جميعا . .  
- إنك ممن رضى الله عنهم ، ومن تمام رضاه أن نبدأ حياة  
جديدة مثمرة . .  
فقال صنعان مدفوعا بحب الاستطلاع :  
- أسأل الله أن يتم نعمته علينا . .  
شربوا فتلقوا من الراح نشوة وانتعاشا . . وجعل السلولى  
يقول :  
- طهرنا لكم الحى من الأوباش . .  
فقال بحزن دفين :  
- نعم الحزم والعزم . .  
فقال بطيشة مرجان :  
- لا نكاد نسمع الآن عن سرعة أو جريمة . .  
فسأل صنعان بحذر :  
- هل اهتديتم إلى الجانى؟  
فضحك السلولى قائلا :  
- المعترفون بالجريمة فاقوا الخمسين عدا!  
ضحك مرجان أيضا ولكنه قال :

- الجانى الحقيقى ضمنهم ولا شك . .

فقال السلولى :

- إنها مشكلة جمصة البلطى !

فقال بطيشة :

- علينا أيضا أن نضاعف المواعظ فى المساجد والموالد . .

أوشك صنعان أن ييأس ولكن السلولى أشار إلى مرجان إشارة خاصة فغادر المكان . . ومع ذلك كان الحرس منتشرًا فى الحديقة ، ولا يوجد مهرب ، ولكنه لم يغفل لحظة عن وعد قمقام . . قال السلولى مغيرا لهجته :

- فلنطو حديث الجريمة والمجرمين . .

فقال صنعان باسمًا :

- طابت ليلتك يا مولاي . .

- الحق أنى دعوتك لأكثر من داع . .

- إنى رهن الإشارة . .

فقال بثقة :

- إنى أرغب فى الزواج من كريمتك . .

دهش صنعان . . أسف لفرصة قدر لها الإحباط قبل أن تولد ،

ولكنه قال :

- هذا شرف كبير وسعادة عظيمة . .
- وعندى أيضا بنت هدية لابنك فاضل!
- فقال صنعان طاردا ذهوله :
- إنه شاب سعيد الحظ . .
- وصمت قليلا ثم واصل :
- أما المطلوب الأخير فهو يتعلق بالمصلحة العامة!
- فتجلت فى عينى صنعان نظرة مستطلعة فقال الحاكم :
- المقاول حمدان طنيشة قريبك . . أليس كذلك؟
- أجل يا مولاي . .
- المسألة أننى اعتزمت شق طريق بحذاء الصحراء بطول الحى  
كله . .
- مشروع رائع حقاً . .
- فسأله بنبرة ذات مغزى :
- متى تجيئنى به إلى هذا المكان؟
- اجتاحته موجة من السخرية وهو يقول :
- موعدنا مساء الغد يا مولاي!
- فحدقه بنظرة ثابتة وتساءل باسمه :
- ترى على أى حال سيجيئنى؟

فقال صنعان بلباقة ودهاء :

- على الحال التى تتوقعها تماما . .

- أنت لبيب يا صنعان ، ولا تنس أننا أهل !

خاف صنعان أن يباغته باستدعاء بطيشة مرجان . . قال لنفسه :  
«الآن . . أو تلاشت الفرصة إلى الأبد» . . ويسر الرجل له الأمر  
وهو لا يدري فمد ساقيه وانطوى على ظهره طلبا للراحة ثم  
أغمض عينيه . . كان صنعان يغوص فى خيال الجريمة ويقذف  
بنفسه فيما تبقى له من مصير . . استل خنجره . . سدده نحو  
القلب . . طعن بقوة مستمدة من التصميم واليأس والرغبة الأخيرة  
فى النجاة . . انتفض الحاكم انتفاضة عنيفة كأنما يصارع قوة  
مجهولة . . تقلص وجهه وحملق بجنون . . همّ بضم ساعديه  
كأنما ليقبض على الخنجر ولكنه لم يستطع . . نطقت عيناه  
المدعورتان بكلام لم يسمع ، ثم همد إلى الأبد . .

- ١٢ -

حملق فى الخنجر غائب النصل والدم المتدفق وهو يرتجف . .  
انتزع عينيه بمشقة ونظر نحو الباب المغلق بخوف شديد . . تمزق  
الصمت بنبض صدغيه . . ولأول مرة يلحم القناديل المعلقة فى  
الأركان . . ولمح أيضا قائما خشبيا مزخرفا بالأصداف عليه  
مصحف كبير . . توصل بكل عذاباته إلى قمقام عفريته وقدره . .  
وغشيه الوجود الخفى وسمع الصوت يقول بارتياح :

- أحسنت .  
ثم بمرح :  
- الآن تحرر قمقام من السحر الأسود . .  
قال صنعان :  
- أنقذنى فقد كرهت المكان والمنظر . .  
فقال بهدوء وعطف :  
- إيمانى ينعنى من التدخل بعد أن ملكت حرية إرادتى . .  
فقال بجزع :  
- لا أفقه معنى لما تقول !  
- عيبك يا صنعان أنك لا تفكر كإنسان . .  
- رباه ، لا وقت للجدل ، أتزمع تركى لشأنى ؟  
- هذا تماما ما يقتضيه واجبى . .  
فصاح :  
- يا للفظاعة ! لقد خدعتنى . .  
- بل منحتك فرصة للخلاص قلما تتاح لحتى . .  
- ألم تتدخل فى حياتى وتحملنى على قتل هذا الرجل ؟  
- كنت راغباً بحرارة فى التحرر من شر السحر الأسود  
فاخترتك لإيمانك رغم تأرجحك بين الخير والشر ، قدرت أنك  
أولى من غيرك بإنقاذ حيك ونفسك . .

فقال بيأس :

- لكنك لم توضح لى أفكارك . .

- وضحتها بالقدر الكافى لمن يفكر . .

- مكر غير محمود . . من قال إنى مسؤل عن الحى؟!!

- إنها أمانة عامة لا يجوز أن يتبرأ منها إنسان أمين ولكنها  
منوطة أولاً بأمثالك ممن لا يخلون من نوايا طيبة!

- ألم تنقذنى من ورطتى تحت سلم الكتاب؟

- بلى ، عز علىَّ أن تنتهى بسبب من تدخلى أسوأ نهاية لا أمل  
فيها لتكفير أو توبة فارتأيت أن أمنحك فرصة جديدة . .

- وها قد قمت بما عاهدتك عليه فوجب عليك إنقاذى . .

- إذن تكون مؤامرة ، دورك فيها دور الآلة ، وتقف الجدارة  
والتكفير والتوبة والخلاص . .

فرقع على ركبتيه قائلاً بتوسل :

- ارحمنى ، وأنقذنى . .

- لا تبدد تضحيتك فى الهواء . .

- إنه مصير أسود!

- فاعل الخير لا تكرهه العواقب . .

هتف بذعر :

- لا أريد أن أكون بطلاً!

فقال قمقام بأسى :

- كن بطلاً يا صنعان ، هذا قدرك .

ومضى الصوت يتلاشى وهو يقول :

- أستودعك الله وأستغفره لى ولك . .

ندت عن صنعان صرخة ترامت إلى بطيشة مرجان ورجال

الحرس فى الخارج . .

## جمصة البلطى

- ١ -

سبحت روح صنعان الجمالى فى سماء مقهى الأمراء فغشى  
روادها الكدر، شهدوا محاكمته سمعوا اعترافه الكامل، رأوا  
سيف شبيب رامة السياف وهو يطيح برأسه . . كانت له منزلة طيبة  
بين التجار والأعيان، وكان من القلة النادرة التى يحبها الفقراء،  
وأمام أولئك وهؤلاء ضربت عنقه وشردت أسرته . . ذاعت قصته  
على كل لسان، هزت أفئدة الحى والمدينة، استعادها السلطان  
شهر يار مرات ومرات . . وفى جو المقهى الملطف بطلائع الخريف  
قال حمدان طنيشة المقاول:

- الله خالق الملك وصاحبه، المتصرف فى شئونه بما يشاء،  
يقول للشىء كن فيكون، من منكم كان يتصور هذا المصير لصنعان  
الجمالى؟ صنعان يغتصب بنتا فى العاشرة ويخنقها؟ صنعان يقتل  
حاكم الحى فى أول لقاء معه؟!!

فقال إبراهيم العطار:

- باستبعاد العفريت تصبح الحكاية لغزا من الألغاز!

فقال الطبيب عبد القادر المهيني :

- لعلها عضمة الكلب ، هى الأصل ثم تفرع عنها خيالات مرض خبيث لم يعالج كما يجب ! .

فقال إبراهيم العطار محتدا :

- لا يوجد من هو أخبر منى بمداواة عضمة الكلب ، آخرهم كان معروف الإسكافى . . أليس كذلك يا معروف؟

فأجاب معروف من مجلسه فى الوسط بين العامة :

- الحمد لله الذى أتم علىَّ نعمة الشفاء . .

فتساءل عجز الحلاق :

- ولم لا نصدق حكاية العفريت؟

فقال إبراهيم السقاء :

- إنهم يفوقون الأدميين عدا . .

فقال سحلول تاجر المزايدات والتحف :

- الموت فى غنى عن الأسباب . .

فقال معروف الإسكافى :

- لى مع العفاريت حكايات وحكايات . .

عند ذلك قال شملول الأحذب ، مهرج السلطان :

- علمنا أن العفاريت تتجنب دارك خوفا من زوجتك . .  
فابتسم معروف مسلما بقضائه . . ولم تلق الدعابة نجاحا في  
الجو الكئيب . . وقال جليل البزاز:  
- ضاع صنعان وضاعت أسرته . .  
فقال كرم الأصيل صاحب الملايين والوجه الشبيه بالقرد:  
- ومد يد المعونة لأسرته يعتبر تحديا للإمارة ، فلا حول ولا قوة  
إلا بالله . .  
فقال إبراهيم العطار:  
- أخوف ما أخاف أن ينفر الناس من أسرته اتقاء لشر  
العفاريت . .  
فقال حسن العطار الابن:  
- هيهات أن يغير شيء من بيني وبين فاضل صنعان . .  
وعاد حمدان طنيشة المقاتل يقول:  
- يقول للشيء كن فيكون . .

- ٢ -

انطلق جمصة البلطى كبير الشرطة نحو النهر ليمارس هوايته  
المفضلة في الصيد - كف نفسه أربعين يوما عن هوايته حدادا على  
رئيسه على السلولى . . وقد حزن على القاتل أيضا في باطنه

بحكم الجيرة والصدقة القديمة التي جعلت من الأسرتين أسرة واحدة . . رباه، هو الذى قبض عليه، هو الذى رماه فى السجن، هو الذى قدمه للمحاكمة، ثم ساقه أخير للسياف شبيب رامة، هو أيضا من علق رأسه بأعلى داره وصادر أمواله وطرد أسرته من الدار إلى النار . . وعلى ما عرف به من شدة وصلابة فقد تكدر صفوه وحزن قلبه - له قلب رغم أن كثيرين لا يتصورون ذلك . . بل أحب هذا القلب حسنية كريمة صنعان وأوشك أن يطلب يدها لولا أن دهمته الحوادث . . اليوم طاب الجو وهامت فى السماء سحائب خريف صافية ولكن حبه دهس تحت عجلة الأحداث . . ترك بغلته مع عبد ثم دفع القارب إلى وسط النهر ورمى بالشبكة . . قطرات من الراحة فى خضم العمل الشاق الوحشى . . ابتسم . . سرعان ما تم التفاهم بينه وبين الحاكم الجديد خليل الهمذانى . . من أين يجيء شهريار بهؤلاء الحكام؟! أسفر الرجل عن وجهه عند أول تجربة . . التجربة كانت أموال صنعان المصادرة . . استولى على نصيب منها لا يستهان به، وألقم بطيشة مرجان كما ألقمه نصيبه . . وأضاف المتبقى إلى بيت المال . . استولى على نصيبه بالرغم من حزنه لمصير صديقه معذرا أمام نفسه بأن الرفض يعنى تحديا للحاكم الجديد . . فى قلبه موضع للعواطف وموضع للقسوة والجشع . . قال لنفسه: «من تعفف جاع فى هذه المدينة» . . وتساءل ساخرا: «ماذا يجرى علينا لو تولى أمورنا حاكم عادل؟!» أليس السلطان نفسه هو من قتل المئات من العذارى والعشرات من أهل الورع والتقوى؟! ما أخف موازينه إذا قيس بغيره من أكابر السلطنة! تنفس بعمق . . حقًا إنه

يوم جميل . . السماء منقوشة بالسحب . . الهواء معتدل مضمخ  
برائحة العشب والماء ، الشبكة تمتلئ بالسمك ، ولكن أين حسنية؟  
أسرة صنعان تقيم اليوم بحجرة بربع . . بعد الجاه والجواهر  
والإصطبل . . أم السعد تصنع الحلوى - التي كانت تسحر بها  
ألباب الضيوف - وفاضل يسرح بها كبائع جوال ، أما حسنية  
فتتظر عريسا لن يأتي . . هل حقاً سخرت عفريت يا صنعان أو  
أتلفتك عضه كلب؟! لن أنسى نظرتك الزائغة واستغاثتك بي  
«أسرتي يا جمصة» . . هيهات أن يجرؤ إنسان على مديده إلى  
أسرتك . . ابنك فاضل أيضا ولد ذو كبرياء . . ضعت يا صنعان  
وما كان كان . . إن يكن عفريتك مؤمنا حقاً فليفعل شيئا . . عجيبة  
هذه السلطنة بناسها وعفاريتها . . ترفع شعار الله وتغوص في  
الدنس . . وبغته تحول وعيه إلى يده . . ثقلت الشبكة مبشرة  
بالخير . . جذبها بسرور حتى استوت فوق سطح القارب . . لم ير  
بها سمكة واحدة! .

- ٣ -

ذهل جمصة البلطى . . ثمة كرة معدنية ولا شيء سواها . .  
تناولها حانقا ، قلبها بين يديه ، ثم رمى بها في باطن القارب . .  
أحدثت صوتا عميقا مؤثرا . . حدثت بها شيء غير ملحوظ  
فتمخض عن انفجار . . انطلق منها ما يشبه الغبار مدوما في الجو  
حتى عانق سحب الخريف . . وتلاشى الغبار تاركا وجودا خفيفا  
جثم عليه فملاً شعوره بحضوره الطاغى . . ارتعب جمصة على

إيلافه مواقف الخطر . . أدرك بسابق علمه أنه حيال عفريت منطلق  
من قمقم . . ما ملك أن هتف :

- الأمان بحق مولانا سليمان!

فقال صوت لم يسمع له مثيلا من قبل :

- ما أعذب الحرية بعد جحيم السجن!

فقال البلطى متوددا بحلق جاف :

- خلاصك تم على يدى . .

- أخبرنى أولا عما فعل الله بسليمان؟

- مات سيدنا سليمان منذ أكثر من ألف عام . .

فقال الرجل ورأسه يتمايل من النشوة :

- مباركة مشيئة الله ، هى التى سلطت علينا إرادة آدمى لا يرقى  
ترايه إلى نارنا ، وذلك الأدمى هو الذى عاقبنى على هفوة من  
هفوات القلب يغفر الله أكبر منها برحمته . .

فقال جمصة بأمل متصاعد :

- هنيئا لك الحرية فانطلق واستمتع بها . .

قال بسخرية :

- أراك تطمع فى النجاة!

- بما كنت الوسيلة إلى خلاصك!

- ما حررنى إلا القدر . .

فقال جمصة بلهفة :

- وكنت أداة القدر . .

فقال بحنق :

- فى سجنى الطويل امتلأت بالحنق والرغبة فى الانتقام . .

فقال بضراعة :

- العفو عند المقدرة من شيم الكرام . .

- بارعون أنتم فى الحفظ والاستشهاد والنفاق، وعلى قدر

علمكم يجب أن يكون حسابكم، فالويل لكم . .

فقال جمصة البلطى باستعطاف :

- نحن نخوض صراعا متواصلا مع أنفسنا والناس والحياة،

وللصراع ضحايا لا يحيط بهم حصر، والأمل لا ينعدم أبدا فى

رحمة الرحمن . .

فقال العفريت فى صرامة :

- الرحمة لمن يستحق الرحمة، ورحاب الله مفروشة بأزاهير

الفرص المتاحة لمن استمسك بالحكمة، لذلك لا تحق الرحمة إلا

للمجتهدين وإلا أفسدت الروائح الكريهة نقاء الجو المضىء بالنور

الإلهى، فلا تعتذر عن الفساد بالفساد . .

- نحن نؤمن بالرحمة حتى ونحن نضرب الأعناق ونجتز

الراءوس . .

- يالك من منافق! ما عملك؟  
- كبير الشرطة . .  
- يا لها من ألقاب! هل تؤدى واجبك بما يرضى الله؟  
فقال جمصة بقلق :  
- واجبى أن أنفذ الأوامر . .  
- شعار يصلح لتغطية الخبائث . .  
- لا حيلة لى فى ذلك . .  
- إذا دعيتم لخير ادعيتم العجز ، وإذا دعيتم لشر بادرتم إليه  
باسم الواجب!  
وقع جمصة فى حصار محكم وهفت عليه نذر الوعيد فترجع  
إلى حافة القارب وهو يرتعد . . فى ذات الوقت شعر بنفاذ وجود  
جديد هيمن على المكان فأمن بمقدم عفريت آخر وأيقن بالضياح . .  
قال القادم الجديد مخاطبا الأول :  
- هنيئا لك الحرية يا سنجام . .  
- الشكر لله يا قمقام . .  
- لم أرك منذ أكثر من ألف عام . .  
- ما أقصرها بالقياس إلى العمر! وما أطولها إذا انقضت فى  
قمقم!  
- وقعت أنا أيضا فى شباك السحر وهو يضاهى السجن فى  
عذابه . .

- ما تصيبنا آفة إلا من بنى آدم . .  
- فى فترة غيابك وقعت أحداث وأحداث فلعلك يهملك أن تلم  
بما فاتك . .  
- بلى ، ولكنى أريد أن أتخذ قرارا نحو هذا الأدمى . .  
- دعنا منه الآن ، هيهات أن يفلت من يدك إذا أردته ، ولكن  
لا تتخذ قرارا وأنت حانق ، فما هلك منا عفريت إلا فريسة  
لغضبه ، هلم بنا إلى جبل قاف نحتفل بتحريك . .  
قال سنجام مخاطبا البلطى .  
- إلى اللقاء يا كبير الشرطة . .  
مضى الوجود المهيمن يخف حتى تلاشى تماما . . استرد  
جمصة حرية أعضائه ولكنه تهاوى فوق سطح القارب خائر القوى  
وثملا بالأمان فى آن . .

- ٤ -

وثب جمصة البلطى إلى الشاطئ فاستقبله العبد منحنيا ثم  
مضى يطوى الشبكة وهو يقول :  
- ما فى الشبكة سمكة واحدة  
فقال جمصة بريق جاف :  
- أكنت تنظر نحوى وأنا فى القارب؟

- طيلة الوقت يا مولاي . .

- ماذا رأيت؟

- رأيتك وأنت ترمى الشبكة، وأنت تنتظر، ثم وأنت تجذبها،  
لذلك أدهشني أن أجدها فارغة . .

- ألم تر دخانا ينتشر؟

- كلا يا مولاي . .

- ألم تسمع صوتا غريبا؟

- كلا .

- لعلك غفوت!

- أبدا يا مولاي . .

- ما كان بوسعك أن يشك فيما وقع له . . إنه حقيقى أكثر من  
الحقيقة نفسها . . وقد حفر فى ذاكرته اسم قمقام بمثل القوة التى  
حفر بها اسم سنجام . . فذكر اعترافات صنعان فى صورة جديدة  
فخُيِّل إليه أن صديقه القديم راح ضحية تعيسة . . وتساءل بقلق  
عما يخبئه له الغيب!

\* \* \*

طوى سره فى صدره . . حتى رسمية زوجته لم تعلم به . .  
وهو سر يثقل على الصدر والقلب ولكن ما الحيلة؟ . إذا فشا يوماً  
أضر بمركزه وأفقده وظيفته . . وأرق الليل متفكراً فى العواقب  
مصمماً على الحذر . . سنجام مؤمن فيما بدا وسيحفظ له جميل  
تحريره ولو صدفة . . نام عقب صلاة الفجر ساعة ثم استيقظ على  
حال أفضل . . كان بطبيعته قويا يتحدى الصعاب والوساوس . .  
لقد استأنس السلولى والهمذانى وليس سنجام بأشد مراسا  
منهما . . وقالت له رسمية وهما يشربان لبن الصباح :

- أمس زارتنى جارتنا القديمة أم السعد . .

توترت أعصابه فجأة . . قدر خطورة الزيارة تقدير شرطى عالم  
ببواطن الأمور وقال بجفاء :

- أرملة مسكينة ولكن . .

وتردد لحظة ثم واصل حديثه :

- ولكن زيارتها لنا تضر بمركزى . .

- حالها تقطع القلب . .

- هكذا حال الدنيا يا رسمية ولكن لندع ما لله لله!

- جاءت بأمل أن تعينها على تقديم التماس للحاكم برد أملاك

الأسرة . .

فهتف :

- يا لها من جاهلة!

- قالت :- إن الله لا يأخذ الأبناء بذنوب الآباء . .

- شهريار نفسه هو الذى أصدر الحكم!

ثم قال بوضوح :

- صنعان كان صديقى ولكن ما قدر كان، ولعل قتل البنت بعد اغتصابها لا يعد شيئاً بالقياس إلى قتل حاكم الحى، فالسلطان يعتبر الضربة الموجهة إلى نائبه موجهة إلى شخصه، وما زال السلطان سفاكاً رغم تغييره الطارئ، فلا تشجعيها على التردد عليك وإلا حلت بنا لعنة لا قبل لنا بها . .

فوجمت المرأة منكسرة الفؤاد فقال :

- إنى فى الحزن مثلك ولكن لا حيلة لنا . .

-٦-

إنه صادق فيما قال . . حزنه على آل صنعان لم ينقشع، ومرجع ذلك ليس العشق وحده . . أحب الرجل من قبل أن يحب كرميته . . وهو لا يخلو دائماً من عواطف طيبة، ومن ذكريات دينية، ولكنه لا يجد بأساً من ممارسة الانحراف فى عالم منحرف . . الحق أنه لا يوجد قلب فى الحى كقلبه فى جمعه بين الأسود والأبيض . . لذلك دعا فاضل صنعان إلى داره فى زيارة

أحاطها بالكتمان . . جاء الفتى فى زيه الجديد المكون من الجلباب والصندل، زى البياع الجوال . . أجلسه إلى جانبه فى المنظرة وقال :

- يسرنى يا فاضل أنك تواجه مصيرك بشجاعة فائقة . .

فقال فاضل :

- أحمد الله الذى أبقى على دينى بعد ضياع الجاه والمال . .

أعجب به حقاً وقال :

- استدعيتك احتراماً لعهدنا القديم . .

- بارك الله فىك يا سيدى . .

فنظر إليه ملياً ثم قال :

- لولا ذلك لأبحت لنفسى القبض عليك . .

فدهش فاضل متسائلاً :

- تقبض علىّ؟ . . لماذا يا سيدى؟

- لا تتظاهر بالجهل . . ألم يكفكم ما حاق بكم من شر؟! اسع

لرزقك بعيداً عن مصاحبة المخربين من أعداء السلطان!

فقال فاضل بوجه شاحب :

- ما أنا إلا بائع جوال . .

- دع المناورة يا فاضل، لا شىء يغيب عن جمصة البلطى،

ومهمتى الأولى كما تعلم هى مطاردة الشيعة والخوارج . .

فقال فاضل بصوت منخفض :

- لست منهم ، وقد كنت تلميذا فى مطلع حياتى للشيخ عبد  
الله البلخى . .

- وكنت أنا أيضا تلميذه ، من مدرسة البلخى يخرج كثيرون ،  
أهل الطريق ، أهل السنة ، كما يخرج شياطين منحرفون عن الخط  
الأول . .

- ثق يا سيدى بأننى أبعد ما يكون عن الشياطين . .

- لك رفقاء ورفقاء منهم !

- لا شأن لى بعقائدهم !

فقال محذرا :

- فى البداية رفقة بريئة ثم تجىء النكسة ، وهم مجانين ،  
يكفرون الحكام ، ويغررون بالفقراء والعييد ، لا يعجبهم العجب  
ولا الصيام فى رجب ، كأن الله اصطفاهم دون عباده ، احذر  
مصير أبيك فللشيطان طرق شتى ، أما أنا فلا أعرف إلا واجبى ،  
وقد بايعت السلطان كما بايعت حاكم الحى ، على إبادة المارقين . .

فقال فاضل بنبرة فاترة :

- تؤكد يا سيدى من أننى أبعد ما يكون عن المارقين . .

فقال جمصة :

- منححك نصيحة أبوية فقدرها . .

- شكرا المروءتك يا سيدى . .

وجعل يتفرس فى وجهه بحثا عن مواقع الشبه بينه وبين حسنية  
أخته، انتشى لحظات بالوجد، ثم قال:

- وثمة مسألة أخرى، أرجو أن تبلغ والدتك أن تقديم التماس  
برد أملاك الأسرة يعتبر تحديا للسلطان، فلا حول ولا قوة إلا  
بالله .

فقال فاضل بتسليم:

- هذا هو رأى أيضا يا سيدى . .

وانتهت المقابلة فى سرية كما بدأت، وتساءل جمصة «ترى هل  
يتاح له يوما أن يستدعيه ليطلب منه يد حسنية؟!» .

- ٧ -

لعل جريمة صنعان الجمالى هى الحدث الخطير الوحيد الذى  
وقع فى خدمة جمصة البلطى . . ولم يحمله أحد مسئوليته خاصة  
بعد ما عرف من تدخل العفريت فيه . . وليس كذلك ما يقع اليوم  
فى الحى . . فقد تتابعت حوادث قطع طريق داخل سور الحى  
وخارجه بكثرة مزعجة، فنهب أموال وسلع واعتدى على  
رجال . . وغضب جمصة البلطى غضب شرطى قدير حائز  
للثقة . . بث المخبرين فى الأماكن النائبة، ونشر الدوريات نهارا

وليلاً ، وتفقد الأماكن المشبوهة بنفسه ولكن الحوادث مضت في جريانها هازئة بنشاطه ولم يقبض على مجرم واحد . .  
وقال كرم الأصيل صاحب الملايين في مقهى الأمراء :  
- كان حال الأمن أفضل على عهد المرحوم السلولى . .  
فقال الطيب عبد القادر المهينى ضاحكا :  
- لم يوجد قاطع طريق على عهده سواه !  
فقال عجر الحلاق :  
- جمصة البلطى فى أسوأ أحواله . .  
وهو يطلع على أحوال السادة وهو يقدم لهم خدماته - كحلاق  
- فى دورهم ، فقال إبراهيم العطار :  
- الأمن حياة التجارة ، والتجارة حياة الأمة ، أقترح أن يذهب  
منا وفد إلى حاكم حينا الهمدانى . .

- ٨ -

ودعا خليل الهمدانى جمصة البلطى إلى دار الإمارة وقال له  
بعنف :  
- المدينة تخرب وأنت تغط فى النوم . .  
فقال كبير الشرطة بصوت منهزم :

- ما نمت وما قصرت . .  
- العبرة بالخواتيم . .  
- إن يدي مغلولتان . .  
- ماذا تريد؟  
- الصعاليك الذين سبق القبض عليهم ينطلقون الآن  
لانتقام . .  
- ثبت من اعتراف صنعان أنهم كانوا أبرياء . .  
- لذلك فهم ينتقمون ولا مفر من اعتقالهم مرة أخرى . .  
فقال الحاكم بحدة:  
- لقد سخط الوزير دندان على اعتقالهم فى المرة الأولى فلن  
أسمح به مرة أخرى . .  
فقال جمصة البلطى بأسى:  
- على أى حال إنى أخوض معركة بقوة لا تعرف الهوادة . .  
فقال الحاكم:  
- لا بد من ضبط الأمن وإلا عزلتك!  
هكذا غادر جمصة البلطى دار الإمارة يجر أذيال الإهانة لأول  
مرة فى حياته . .

- ٩ -

غضب حيال الإهانة فهيمنت عليه طبيعته القوية المتحدية . .  
غاضت نوازع الخير فتوارت في أعماق بعيدة . . تصدى للهزيمة  
بوحشية رجل يستبيح أى شىء فى سبيل الدفاع عن سلطته . . لقد  
استوعبته السلطة وخلقته خلقا جديدا فتناسى الكلمات الطيبة التي  
تلقاها على يد الشيخ فى الزاوية على عهد البراءة . . سرعان ما  
جمع أعوانه فصب عليهم السيل الذى انصب عليه فى بهو الإمارة  
وفتح نوافذ الجحيم على مصراعيها . . وكلما وقع حادث جديد  
قبض على عشرات بلا دليل أو قرينة وعذبهم بلا رحمة . .  
وخفت تبعاً لذلك متابعته للشريعة والخوارج فضاعفوا من  
نشاطهم ، وحرروا الصحائف السرية تطفح بتجريم السلطان  
والولاية وتطالب الاحتكام إلى القرآن والسنة . . وجن جنونه  
فاعتقل الكثيرين حتى خيم الخوف على الحى جميعا ومادت به  
الأرض . . واستفزع الهمدانى عنف الإجراءات ولكنه أغمض  
عينيه طمعا فى الفرج . . على ذلك كله ازدادت الحوادث عدا  
وعنفا .

- ١٠ -

انهزم جمصة البلطى ولكنه أبى الاعتراف بالهزيمة . . وجعل  
بييت لىالى عديدة فى دار الشرطة حتى تسلط الإرهاق على قوته  
٦٥

الخارقة . . وغلبه النوم مرة فى حجرة عمله فاستسلم له كأسد  
جريح . . لم يفز بالراحة المنشودة ولكنه طرح تحت ثقل وجود  
غليظ احتل جوارحه . . همس فى حيرة:

- سنجام!

فجاء الصوت مقتحما وجدانه:

- أجل يا كبير الشرطة!

فسأله مستنكرا:

- ماذا دعاك إلى الحضور؟

- غباء من يدعون الذكاء!

تنور عقله فجأة لم تجر له فى خاطر فقال:

- الآن عرفنا سر قطاع الطريق الذين لا يعثرون لهم على أثر!

- الآن فقط؟

- من أين لى أن أضمن أنك صاحبهم؟

- اعترف رغم غرورك بأنك غبى . .

فسأله بتحد:

- كيف هان عليك نهب الأموال وذكر الله يتردد على لسانك؟!!

- لم يصب غضبى إلا الطغمة المستغلة للعباد . .

فتأوه قائلا وكأنما يحدث نفسه:

- سأفقد عملى من أجل ذلك . .
- إنك أيضا من الطغمة الفاسدة . .
- فقال بفخار:
- إنى مثل أعلى فى أداء الواجب . .
- والمال الحرام؟
- ماهو إلا فتات تتساقط من موائد الكبراء . .
- عذر قبيح . .
- إنى أعيش فى دنيا البشر . .
- ماذا تعرف عن الكبراء؟
- كل كبيرة وصغيرة ، ماهم إلا لصوص وأوغاد!
- فقال الصوت متهكما:
- لكنك تحميهم بسيفك البتار وتطارده أعداءهم الشرفاء من أهل  
الرأى والاجتهاد . .
- إنى منفذ الأوامر وطريقي واضحة . .
- بل تطاردك لعنة حماية المجرمين واضطهاد الشرفاء . .
- ما فكر رجل وهو يؤدى واجبى هذا إلا هلك . .
- إذن أنت أداة بلا عقل . .
- عقلى فى خدمة واجبى فحسب . .

- عذر من شأنه أن يهدر إنسانية الإنسان . .  
ولمخ في وجدانه خاطر فتفتحت له أبواب ونوافذ، فقال  
بدهاء:
- الحق أنى لست راضيا عن نفسى . .  
- محض كذب . .  
فقال بحرارة:
- لم أفلح قط فى اقتلاع الهوائف الشريفة، إنها دائما تحاورنى  
فى سكون الليل . .  
- لا أجد لها أثرا فى حياتك . .  
فقال بلباقة:
- تعوزنى قوة تسندنى عند الحاجة!  
- بل إنك تطارد الهوائف الشريفة كما تطارد الشرفاء . .  
فقال بتحد:
- إنى أضع نفسى تحت الاختبار . .  
- أفصح عما تريد . .  
- اجعل قوتك فى مساندتى لا فى معاندتى . .  
- ماذا تريد؟  
- أهلك المجرمين واحكم الأمة حكما عادلا نقيًا!  
جلجلت ضحكة ملأت الكون وقال:

- تود أن تمكربى لتحقيق أحلامك الدفينة فى القوة والسلطان!  
- كوسيلة لا كغاية!  
- ما زال قلبك غارقا فى العبودية!  
- جربنى إذا شئت . .  
- إنى عفريت مؤمن ولا أتجاوز حدودى أبدا . .  
فقال جمصة يائسا:  
- إذن فابعد عن طريقى بسلام . .  
- الحق أنى فكرت بهدوء فوق جبل قاف فاقتنعت بأنك أدبت  
لى خدمة غير منكورة وإن تكن غير مقصودة فقررت أن أرد  
الصنيع بمثله ودون تجاوز للحدود . .  
فقال بحيرة:  
- ولكنك تفعل نقيض ما تقصد?  
- يالك من غبى!  
فقال بتوسل:  
- أوضح لى هدفك . .  
- لك عقل وإرادة وروح!  
- ألق على بصيصا من نور . .  
- لك عقل وإرادة وروح . .  
هم بالتوسل إليه ولكن الآخر أطلق ضحكة ساخرة، ثم سحب  
وجوده بسرعة وتلاشى . .

استيقظ جمصة البلطى على نقر الباب . . دخل وكيه ليخبره  
بأنه مدعو إلى لقاء الحاكم الهمداني . .

#### - ١١ -

تمنى لو ترك نفسه ليتأمل ولكنه لم يجد من الذهاب بدأ . . ما  
توقع خيراً من المقابلة . . لم يعد ينتظر خيراً على الإطلاق . .  
اختفت بروق الآمال فى سماء الخريف وصمتت طبول النصر . .  
سيتأرجح طويلاً بين الحاكم وعبث سنجم . . غاص فى دوامة لا  
قرار لها فوق متن بغلته فى الطريق إلى دار الإمارة . . الطريق  
مفعهم بالحركة والصوت ، تحاصره مطالب الحياة ، الأعين تتابعه  
بازدراء . . لا سرور ولا غرور . . وانقضت أيام الاختيال . . حقيقير  
يقتات على الحقارة ، هذا ما أقنعه به سنجم . . عزاؤه الوحيد كان  
أنه سيف الدولة . . فل السيف وتقوض الأمن فأى وزن له؟! . .  
لص قاتل حامى المجرمين ومعذب الشرفاء . . نسى الله حتى ذكره  
به عفريت من الجن . .

#### - ١٢ -

وجد خليل الهمداني واقفا وسط البهو كرمح مستعد للقتال .  
قال جمصة بهدوء :

- سلام الله عليك أيها الأمير . .

فصاح الحاكم بصوت متهدج من شدة الغضب :

- انعدم السلام بوجودك . .

فقال بحزن :

- إنى أعمل حتى الموت . .

- لذلك سرقت جواهر حريمى من أعماق دارى!

فاق ذلك توقعه . . تساءل عما يريد سنجام . . وجم صامتا . .

صاح خليل الهمداني :

- ما أنت إلا حشاش أو شريك اللصوص . .

قال بصوت غليظ :

- إنى كبير الشرطة . .

- موعدنا المساء وإلا عزلتك وضربت عنقك . .

\* \* \*

- ١٣ -

أى جدوى ترجى من البحث؟ ماذا يفعل رجاله حيال قوة  
سنجام؟ . . سوف يعزل ويفقد شرفه وتضرب عنقه . . إنه مصير  
طالما ساق الناس إليه فكيف يتهمه! . . لكن جمصة لن يقبل  
مصيره دون دفاع، ودون دفاع شرس . . أمامه نهار واحد ولا  
وقت للتردد . . مصيره دون دفاع، ودون دفاع شرس . . أمامه  
نهار واحد ولا وقت للتردد . .